"واو" العطف وإفادة التَّرتيب

دراسة دلاليَّة على نماذج من القرآن الكريم

إعداد

د. عمرو أحمد عطيفي شحاتة

قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها- كُلِّيَّة الآداب-

جامعة القاهرة- الجيزة- مِصر

"واو" العطف وإفادة التَّرتيب- دراسة دلاليَّة على نماذج من القرآن الكريم

عمرو أحمد عُطيفي شحاتة

قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها- كُلِّيَّة الآداب- جامعة القاهرة- الجيزة- مِصر

البريد الإلكتروني: amr_otafy@cu.edu.eg

ملخص:

تسلط هذه الدراسة الضوء على حرف العطف الواو، مركزة على مذاهب النحاة من حيث دلالتها على الترتيب، ومحاولة التوفيق بين آرائهم، ومعتمدة على منهج تحليل الخطاب الذي يركز مقصود المتكلم وفقًا لعناصر لغوية ومقامية، وهادفة إلى تحقيق فرضية لزوم الترتيب في العطف بالواو، وساعية إلى تحقيق هذا الهدف من خلال نماذج من القرآن الكريم قد يبدو فيها الترتيب غير منطقي على مستوى الظاهر، لكن التحليل العميق للنص يبرز أنها مرتبة ترتيبًا عقليًّا لا ظاهريًّا على مستوى التركيب. وقد بينت نتائج الدراسة أن العطف بالواو دال على الترتيب في لغة القرآن الكريم؛ إذ عرفت كل كلمة مكانها من النص لتفيد معنى ودلالة أراد المتكلم سبحانه وتعالى أن يستنبطها المشتغلون بلغة القرآن الكريم من خلال موقعية الكلمات داخل الجمل والأساليب. وانتهت الدراسة موصية بضرورة التحليل الدلالي لقضايا التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم ليس على مستوى أسلوب العطف فحسب بل على مستويات التراكيب العربية كافة، كالتقديم في باب تعدد النعت مثلًا أو الخبر أو الحال أو غيرها من الأشكال المختلفة التي تدخل في إطار قضية التقديم والتأخير على المستوى الواسع.

الكلمات المفتاحية: العطف- الترتيب- المستوى العميق- تحليل الخطاب.

Arrangement by the Conjunction waw: A semantic Study on Examples from the Holy Qur'an

Amr Ahmed Otafy Shehata

Department Arabic - Faculty of Arts- Cairo University- Giza- Egypt

E-mail: amr_otafy@cu.edu.eg

Abstract

This study sheds light on the conjunction particle waw and focuses on the Arabic grammarians' point of view on its meaning of order. Although this study attempts to reconcile these points of view depending on the speech analysis approach, which focuses on the speakers' intended meaning based on specific linguistic and contextual elements, it aims at proving the inevitability of meaning of order of the waw. This aim is achieved through a number of qur'anic examples in which the order may seem illogical, but the deep analysis shows that they are mentally rather than structurally ordered. The results of the study have shown that the conjunction waw denotes order in the language of the Holy Qur'an. That is, each word occurs in its specific position to give a meaning, and this meaning can be inferred by scholars and specialists from the position of the word within the sentences and structures. The study concludes that the semantic analysis of the order change in the language of the Qur'an is very significant, not only in the case of conjunction, but also in all structural aspects that may involve any kind of order change like the multiplicity of predicates, adjectives or adverbs.

Keywords: conjunction- arrangement- deep analysis- discourse analysis.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

عمرو أحمد عُطيفي شحاتة

مدرِّس اللُّغويَّات بقسم اللُّغة العربيَّة
وآدابها– كُلِّيَّة الآداب– جامعة القاهرة

مقدمة:

الحمد لله الذي ميز الإنسان بخواص التأمل والتفكير والتدقيق، فوهبه نعمة العقل ليكون أهلًا لها وللتحقيق، والصَّلاة والسَّلام على مُخرِج البشرية من الجهل والأمية؛ إذ بعث برسالة سماوية مشتملة على كافة المعاني الإنسانية؛ إذ اشتملت على الصبر والعمل والجهد والدقة في استنباط الأحكام لا سيما ما يتعلق بتثوير القرآن حتى تبدو لنا جلية، وبعد،

فقد اهتم البحث اللغوي التراثي بدراسة معاني الحروف، والأقسام التي تندرج تحت كل حرف، وظهرت في صنفين: صنف نهض بحصر حروف المعاني وبيان أنواعها ودلالتها، وصنف تناولها ضمن قطاع أكبر من الدرس اللغوي كما نجد في المصنفات النحوية. كما اهتم الدرس اللغوي الحديث بدراسة هذه الحروف في الدرس اللغوي القديم من ناحية وفي التطبيق على مادة لغوية من ناحية أخرى، وكانت دراسات المحدثين تجمع بين الخصوص والعموم في معناهما الواسع.

من هذه الحروف حرف (الواو) الذي كان موضع اهتمام القدماء كما عني بدراسته المحدثون، لبيان أنواعها التي تجيء عليها، وأنماطها التركيبية ودلالتها السياقية، فخرجت الواو إلى بضعة عشر معنى، وأشيع معانيها

وأصلها (واو) العطف التي لمطلق الجمع؛ فتعطف الشيء على مصاحبه وعلى سابقه وعلى لاحقه، وقد يكون بين متعاطفيها تقارب أو تراخ(١).

وهذا الحكم الذي لصق بواو العطف أقصد مطلق الجمع هو ما اطمأن إليه كثير من النحاة، فقد تفيد الترتيب وقد لا تفيد، غير أن بعضهم جنح إلى أنها تفيد الترتيب، وقدم كل فريق حججه وأدلته الداعمة لما ذهب إليه، وقد تابعهم في ذلك الأصوليون والفقهاء.

وتأتي هذه الدراسة ضمن الدراسات المعنية بحروف الربط عامة والعطف خاصة والواو بصفة أخص(٢)، كما تأتي هذه الدراسة ضمن

(١) ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي عبد الحميد، القاهرة، دار الطلائع، ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٧، ١٨.

(٢) عجت المكتبة العربية بما سطره المحدثون من دراسات منجزة على حروف العطف عامة، أو الواو خاصة، أو الواو وغيرها من حروف العطف كالفاء وثم، وقد ظهرت هذه الدراسات في مسلكين: الأول- تناولها ضمن دراسات بناء الجملة التي بدأت مع مطلع السبعينيات من القرن العشرين، وهي من الكثرة بمكان. والثاني- اختص حروف العطف أو الواو بدراسات مستقلة، وهي كثيرة أيضًا، منها على سبيل المثال:

- محمد عبد الرحمن محمد: واو الربط وظائفها ودلالتها، مجلة علوم اللغة، القاهرة، دار غريب، ١٩٩٨م، ص ١٥١: ص ٢٤٧.
- مصطفى حميدة: أساليب العطف في القرآن الكريم، القاهرة، لونجمان، ١٩٩٩م.
- صفاء عبد الله نايف: الواو والفاء وثم في القرآن الكريم- دراسة نحوية دلالية إحصائية، ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٨م.
- محمد سامي صالح: دلالات حروف العطف وأثرها في اخلاف الفقهاء، ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٩م.

==

الدراسات المعنية بحرف الربط (الواو) لكنها لا تهتم بأنواعها وأنماطها ودلالتها إلا بالقدر الذي يخدم البحث، فقد أغنتنا كثير من الدراسات عن الإعادة والتكرار والإعارة- يستثنى من ذلك الدراسة النصية للواو- لأن موضوعها الأساس هو تصفية الخلاف القائم بين النحاة والفقهاء في قضية عنصر الترتيب في العطف بالواو، **فموضوعها** "**الترتيب في العطف بالواو- دراسة دلالية في نماذج من القرآن الكريم**"، **ومادتها** نماذج من آي الذكر الحكيم بوصفه الكتاب الذي يمثل العربية في أرقى أسلوب، وقد اعتمدنا في تحليلها على آراء بعض المفسرين ممن التفتوا إلى عنصر المعنى لا مجرد الشكل والتركيب في واو العطف، **وهدفها** الوقوف على حقيقة العطف بالواو فيما يخص دلالته على الترتيب، **ومنهجها** تحليل الخطاب الذي يعنى بالوقوف على قصد المتكلم وفق عناصر لغوية ومقامية.

==

- بشار عبيد الله مسلم: الواو في القرآن الكريم- دراسة نحوية، ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠١٠م.

- نريمان خياطي: معاني حروف العطف في سورة الأنفال، ماجستير، الجزائر، جامعة الجيلالي بونعامة، ٢٠١٧م.

- حمدي صلاح الهدهد: "الواو" تبادلها وتعدد وظائفها في القراءات العشر- دراسة تركيبية دلالية، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، العدد (١٢)، ١٤٣٨هـ، ص ٧١٩: ص ٧٦٥.

- أحمد رجب حمدان: أثر حروف العطف في سورة عبس- دراسة دلالية، مجلة جامعة النبار للعلوم الإسلامية، المجلد العاشر، العدد (٤٢)، ٢٠١٩م، ص ٤٤٨: ص ٤٨٨.

والسمة الغالبة في هذه الدراسات بمسلكيها حصر أدوات العطف وبيان دلالاتها واستعمالاتها وفق ما يمليه النص من ناحية، ووفق ما قرره النحاة والمفسرون من ناحية أخرى.

وتستوي الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة. أما المبحثان: فأحدهما نظري نهض ببيان أنواع الواو في العربية بإيجاز، ودرس دلالة حرف العطف وفق ما ذهب إليه النحاة وغيرهم من البيئات المختلفة، ثم موقف البحث من هذه القضية التي يبنى عليها المبحث الثاني، فهو تطبيقي على آيات من القرآن الكريم.

المبحث الأول- الواو- مدخل نظري نقدي:

اشتهر في الدرس اللغوي تقسيم الحروف وفقًا لحيثيات شتى، فتقسم مثلًا من حيث الأصالة والفرعية، ومن حيث اختصاصها، ومن حيث عملها، ومن حيث بنية حروفها.. ويجمع كل الحيثيات السابقة تقسيم أكبر لهذه الحروف من حيث المبنى والمعنى، فتلقانا حروف المباني مقابل حروف المعاني. وحرف الواو كأمثاله من الحروف التي تجمع بين المبنى والمعنى.

والواو حرف أحادي غير مختص من حيث ما يتبعه؛ إذ يدخل على الاسم كما يدخل على الفعل، ومن حيث العمل؛ فقد يعمل وقد يُهْمَلُ. وتوقف النحاة عند المعاني المضمرة في حرف الواو، ومنهم من أوجز الدلالات[١] ومنهم من فصلَّها[٢]، ومنهم من خلط المبنى بالمعنى[٣]، ومنهم من بين المعنى وذيله بالمبنى[٤]، وقد تحدث اضطرابات في أقسامها على غير ما صرح به المؤلف.

وخلاصة القول إن الواو الدالة على معنى على قسمين[٥]: عاملة ومهملة، **والعاملة قسمان:** ما يجر [واو القسم- واو ربَّ]، ما ينصب [واو

---

(١) كالزجاجي في حروف المعاني.

(٢) كابن هشام والمرادي.

(٣) كابن هشام في المغني.

(٤) كالمرادي في الجنى الداني.

(٥) راجع:

- المبرد: المقتضب، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، ١٩٩٤م، ج١، ص ١٤٨.

==

المفعول معه وواو المعية]. **والمهملة:** العطف- الاستئناف- الزائدة- واو الثمانية- واو الحال- بمعنى أو- بمعنى الباء- بمعنى لام التعليل- واو التذكر- واو الإنكار- واو الندبة- واو البدل من الهمزة- الإباحة.

تشترك الواو في دلالة العطف مع أحرف ثمانية أخر تكون معها تسعة أحرف، وهي: (الواو) للجمع المطلق، و(الفاء) للترتيب دون مهلة، و(ثم) وهي للترتيب بمهلة، و(حتى) الغائية لعطف البعض على الكل، واختلف في دلالتها على الترتيب، و(أم) المتصلة والمنقطعة، و(أو) بكل معانيها، و(لكن) الاستدراكية في عطف النهي والنفي، و(لا) في عطف النداء والأمر والمثبت، و(بل) الإضرابية، وزاد بعضهم (إما)[1]، وأضاف ابن جماعة (لولا

==

- الزجاجي: كتاب حروف المعاني، حققه وقدم له علي توفيق الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.، ص ٣٦، ص ٣٧

- الرُّماني: معاني الحروف، حققه وخرج حديثه وعلق عليه عرفان العشا، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٣٧.

- الهَرَوي: كتاب الأُزهية في علم الحروف، تحقيق عبد المعين الملوحي، ١٩٩٣م، ص ٢٣١: ٢٣٨

- المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوة، ومحمد نديم، لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٥٤: ١٧٤.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج١، ص ١٧: ٣٢.

- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث، ط٣، ١٩٨٤م، ج٤، ص ٤٣٦: ٤٣٨.

(١) المقتضب، ج١، ص ١٤٩.

وهلا وكيف ومتى وأين وأي)[١]، وزاد آخرون (إلا وليس)، فهي تسعة أخر لكنها مردودة عند المحققين من النحاة[٢].

وتعد (الواو) عند النحاة هي الأصل في العطف؛ لكونها "أم باب حروف العطف"[٣]، وقد ترتب على كونها أم الباب أحكامٌ تنفرد بها عن أخواتها، حصرها ابن هشام في خمسة عشر حكمًا[٤]. وشاع في الدرس النحوي أن

(١) راجع: ابن جماعة: إعانة الإنسان على إحكام اللسان، تحقيق رياض منسي، الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ذخائر مجلة الوعي الإسلامي (١٢)، ٢٠١٧، ٤٠. وهي مردوردة عند المحققين من النحاة، (راجع: المرادي: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق عبد الرحمن علي سليمان، القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، ٢٠٠١م، ص ٩٩٦).

(٢) راجع: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، ص ٩٩٦.

(٣) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٨.

(٤) وهي (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص ١٨: ٢١- وطبعة عبد اللطيف الخطيب، ج ٤، ص٣٥٥: ص ٣٦٨- وراجع بعض ما تنفرد به- الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٦٠: ١٦٢. وقد ذكر بعضها الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة في دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث، القسم الأول، ج٣، ص ٥٠٦، ص ٥٠٧):

الأول- احتمال معطوفها لمعنى المصاحبة أو الترتيب أو عدم الترتيب.

الثاني- اقترانها بإما، نحو قوله تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا)، [الإنسان: ٣]. =

= الثالث- اقترانها بـ(لا) إن سبقت بنفي ولم تُقْصَد المعية.

الرابع- اقترانها بـ(لكن)، نحو قوله تعالى: (ما كان محمدًا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله)، [الأحزاب: ٤٠].

==

مذهب جمهور النحويين أنها للجمع المطلق[1] أو مطلق الجمع[2] على نحو ما استدرك بعض العلماء كما نقل المرادي، لأن المعنى: "أي جمع كان

==

الخامس- عطف المفرد السببي على الأجنبي عند الاحتياج إلى الربط، كمررت برجل قائمٍ زيدٌ وأخوه.

السادس- عطف العقد على النيف، نحو: أحد وعشرون.

السابع- عطف الصفات المفرقة مع اجتماع منعوتها، نحو قول الشاعر: * على ربعين مسلوبٍ وبال*.

الثامن- عطف ما حقه التثنية أو الجمع، نحو قول الفرزدق: إن الرزية لا رزية مثلها ... فقدان مثل محمدٍ ومحمدِ

التاسع- عطف ما لا يستغنى عنه، كاختصم زيد وعمرو.

العاشر- عطف العام على الخاص، نحو قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا)، [نوح: ٢٨].

الحادي عشر- عطف الخاص على العام، نحو قوله تعالى: (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح)، [الأحزاب: ٧].

الثاني عشر- عطف عامل حذف وبقي معموله على عامل آخر مذكور يجمعهما معنى، نحو قول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يومًا ... وزججن الحواجب والعيونا

الثالث عشر- عطف الشيء على مرادفه، نحو قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)، [يوسف: ٨٦].

الرابع عشر- عطف التابع المقدم على متبوعه للضرورة، نحو قول الشاعر: *عليك ورحمة الله السلامُ*

الخامس عشر- عطف المخفوض على الجوار.

(1) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٨.

(2) وهي تعبير ابن هشام، (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص ١٧).

سواء كان مرتبًا أو غير مرتب"[١]. وهذا الذي شاع غير دقيق عند المحققين؛ لأن النحاة على فرق ثلاث في دلالة الواو على الترتيب، ويتمثل ذلك فيما يلي[٢]:

– **فريق يرى أنها لمطلق الجمع أو عاطفة جامعة بتعبير الرماني[٣] مرتبة كانت أو غير مرتبة،** "وهذا قول الجمهور من أئمة العربية والأصول والفقه. ونص عليه سيبويه في بضعة عشر موضعًا في كتابه"[٤]، والمبرد الذي قال في معناها "إشراك الثاني فيما دخل فيه الأول، وليس فيها دليل على أيهما كان أولًا"[٥]، والزجاجي الذي ذهب المذهب نفسه، بقوله: "تكون عطفًا ولا دليل فيها على أن الأول قبل الثاني"[٦]، وكذا الزركشي[٧]، وقد زعم أبو علي الفارسي إجماع النحاة بصريهم وكوفيهم على أنها للجمع المطلق[٨]، وقد

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٦٢.

(٢) يراجع في أدلة كل فريق: صلاح الدين العَلائي: الفصول المفيدة في الواو المزيدة، تحقيق حسن الشاعر، عمان، دار البشير، ط١، ١٩٩٠م، ص ٧٣: ٩٦.

(٣) عندما عرض لمعاني الواو، منها "أن تكون عاطفة جامعة"، (معاني الحروف، ص٣٧).

(٤) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٦٧، ص ٦٨، وانظر كلام سيبويه: الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٥، ٢٠١٤م، ج١، ص ٤٣٨– ج٤، ص ٢١٦.

(٥) المقتضب، ج١، ص ١٤٨.

(٦) حروف المعاني، ص ٣٦.

(٧) البرهان في علوم القرآن، ج٤، ص ٤٣٦.

(٨) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٧٣.

أخذ الشيخ عضيمة برأي هذا الفريق لما اقتصر على أن الواو لا تفيد الترتيب قاصدًا استواء الترتيب وعدمه كما يبدو من نقوله عن الأئمة[1].

- **وفريق يرى أنها لا تفيد الترتيب** كالسيرافي والفارسي والسهيلي فقد ذهبوا إلى إجماع النحاة بصريهم وكوفيهم واللغويين على أنها لا تفيد الترتيب[2]، واستدل ابن عصفور على أن الواو لا ترتيب فيها بشواهد شعرية وبقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، ثم انتهى إلى أن "لو كانت الواو مرتبة لقدم الركوع على السجود. فقد ثبت إذن ما ادعيناه أنها لغير الترتيب"[3].

- **وآخر يرى أنها تأتي للترتيب مطلقًا**، وهو قول بعض الكوفيين كقطرب والفراء وغيرهما[4]، على أن في عبارة الرماني ما يدل على أن هذا الفريق لا ينفي عدم الترتيب، يقول: "وذهب قطرب وعلي بن عيسى الربعي إلى أنه يجوز أن تكون مرتبة"[5].

---

(1) يراجع: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الأول، ج٣، ص ٥٠٤.

(2) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٩، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج١، ص ١٨- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٧٣.

(3) ابن عصفور: شرح جمل الزجاجي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه فواز الشعّار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص ١٨١، والشواهد ص ١٧٩، ص ١٨٠.

(4) راجع: شرح جمل الزجاجي، ج١، ص ١٧٩- الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٨- معاني الحروف، ص ٣٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص ١٨- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٦٨.

(5) معاني الحروف، ص ٣٧.

وقد ردَّ المرادي وابن هشام على الفريق القائل بأن الواو إجماعًا لا ترتب، فيقول المرادي: "وقد علم بذلك [يقصد الفريق القائل بالترتيب] أن ما ذكره السيرافي والفارسي والسهيلي من إجماع النحاة بصريهم وكوفيهم على أن الواو لا ترتب غير صحيح"(١)، ويقول ابن هشام: "وقول السيرافي: "إن النحويين واللغويين أجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب" مردود، بل قال بإفادتها إياه قطرب..."(٢).

ورغم دحض المرادي وابن هشام لزعم كلام السيرافي ومن وافقه، فإنهما يقرران أن الواو لا تفيد الترتيب، وهذا ظاهر في كلامهم عن المعاني التي تخرج عنها الواو من مطلق الجمع، فمن هذه المعاني عطف ما لا يستغنى عنه سواء في باب المفاعلة والافتعال أو غيره، نحو تخاصم زيد وعمرو واختصم زيد وعمرو، وجلست بين زيد وعمرو، فقد قال المرادي بأن هذا المعنى "أحد الأدلة على أنها لا ترتب"(٣)، بل عدها ابن هشام "من أقوى الأدلة على عدم إفادتها الترتيب"(٤).

وحاول بعض القائلين بترتيب الواو التفرقة بين نوعين للواو "**معنى اجتماع**، فلا تبالي بأيما بدأت، نحو اختصم زيد وعمرو، ورأيت زيدًا وعمرًا، إذا اتحد زمان رؤيتهما. **ومعنى اقتران** بأن يختلف الزمان، فالمتقدم في

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٩.
(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج١، ص ١٨.
(٣) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٦٠.
(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص ١٩.

الزمان يتقدم في اللفظ، ولا يجوز أن يتقدم المتأخر"[1]، ومن ثم فدلالة الترتيب مع واو الاقتران لا واو الاجتماع.

وبعد هذا التطواف الموجز بين آراء النحاة ونقد بعضهم، نحاول أن نخط في هذه السطور ما يطمئن إليه البحث ويرجحه. إن تقييد الواو بترتيب أو غير ترتيب لم يكن مناسبًا مع كونها أصلًا للباب وأم أحرف العطف؛ وإذا كان "لأمّ كلِّ بابٍ اختصاص تنفرد بمزيته"[2]، على نحو ما ذكر ابن منظور، فأهم اختصاص الواو هو أنها للجمع دون قيد ترتيب أو تراخ أو سرعة أو غيرها.

ومن ثم مذهب البحث مذهب وسطي؛ إذ الواو لأنها دالة على الجمع دون تقييد، فهي تفيد الترتيب في مواضع ولا تفيد الترتيب في مواضع. ومن ثم فجدير بالدراسات اللغوية البحث عن سر تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بلغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهي قضية دعا إليها السهيلي في معرض حديثه عن عدم دلالة الواو على الترتيب أو التعقيب، لما فصل ما أجمله سيبويه في هذا الشأن، من أن العرب تقدم "في كلامهم ما هم به أهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهمانه ويعنِيانه"[3]؛ إذ إن "هذا أصل [يقصد تقديم الأهم] يجب الاعتناء به

---

(1) يراجع: الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٩.

(٢) ابن منظور: تهذيب الخواص من درة الغواص، تحقيق أحمد طه، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط١، ٢٠٠١م، ص٩٧.

(٣) السهيلي: نتائج الفكر في النحو، حققه وعلق عليه عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ص ٢٠٩- ابن القيم: بدائع ==

لعظم منعته في كتاب الله تعالى، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا بد من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدم في القرآن وتأخير ما أخر، كنحو (السمع والبصر)، و(الظلمات والنور)، و(الليل والنهار)، و(الجن والإنس) في أكثر الآي، وفي بعضها (الإنس والجن)، وتقديم السماء على الأرض في الذكر، وتقديم الأرض عليها في بعض الآي، ونحو قوله تعالى:(سميع عليم)، ولم يجئ (عليم سميع)، وكذلك (عزيز حكيم) و(غفور رحيم)، وفي آية أخرى (رحيم غفور) إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر. وليس شي من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة لأنه كلام الحكيم الخبير"[(١)]، ولعل ما دعا إليه السهيلي يفسر لنا نفيه دلالة الترتيب في الواو، لئلا يظن أنها عشوائية، ولكن النفي عنده إثبات من جهة ونفي من جهة أخرى؛ فأما جهة الإثبات فمن باب تقييد الدلالة؛ إذ البحث عن سر ما قدم وما أخر دليل على عناية المتكلم بالترتيب، وما دام المتكلم قاصدًا ذلك فقد رتبها، وأما جهة النفي فمن باب عموم الدلالة، لأنها في مواضع لا ترتب؛ نحو قولهم: "صمت رمضان وشعبان، وإن شئت شعبان ورمضان"[(٢)].

وتحاول السطور التالية أن تبين الدلالات التي لا ترتب فيها الواو، والدلالات التي يجب من أجلها أن ترتب فيها الواو، على أن نتفق أن لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لا يلتفت فيهما إلا إلى الترتيب.

==

الفوائد، تحقيق علي بن محمد العمران، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، دار عالم الفوائد، ص ١٠٦. وانظر نص كلام سيبويه، ج١، ص ٣٤.

(١) نتائج الفكر في النحو، ص ٢٠٩- بدائع الفوائد، ص ١٠٦، ص ١٠٧.

(٢) نتائج الفكر في النحو، ص ٢٠٨- بدائع الفوائد، ص ١٠٦.

أولًا- عدم الترتيب:

إن إفادة عدم الترتيب هو ما أطلق عليه **دلالة الاجتماع** التي تكون مع ما لا يستغنى عنه بتعبير ابن هشام، ويمكن توضيح بعض أشكال هذه الدلالة في الاستعمالات التالية:

١- بابا المشاركة: تفاعلَ- افتعل:

وهي أبواب يتشارك فيها المعطوفان الفعل، ويكون كل من المعطوف والمعطوف عليه شيئًا واحدًا، وإن كان مفترقين من ناحية التركيب، ولا يصح أن يسند لكل واحد منهما الفعل، فهي "جامعة غير مشتركة"(١)، بتعبير العلائي؛ "فهي جامعة ولم تشرك الفعل في إسناده إلى كل واحد منهما بمفرده. إذ لو قلت اختصم زيد واختصم عمرو لا يصح"(٢). ونلاحظ في التركيبين:

- تخاصم زيدٌ وعمرو.

- اختصم زيدٌ وعمرو.

أن زيدًا وعمرًا كليهما معطوفًا ومعطوفًا عليه، فإذا كان التركيب ظاهره أن لكل واحد وظيفة؛ فإن المعنى العميق أنهما مشتركان في الوظيفة نفسها، وظيفة الفاعل، ومن ثم فمثل هذا العطف لا يهم فيه الترتيب بقدر التركيز على الحدث، فهو من دلالة الاجتماع.

(١) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٥٦.

(٢) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٥٧.

٢- اتحاد زمان الفعل:

وهذا ما قال به مثبتو الترتيب أيضًا، ومثلوا لذلك بـ "رأيت زيدًا وعمرًا، إذا اتحد زمان رؤيتهما"[١]، صحيح قد يكون وقوع الرؤية ثابت في أحدهما أولًا، لكن المتكلم لا يعنيه إلا اجتماعهما معًا، ومنه قولهم: "جمعت زيدًا وعمرًا، والمال بين هذا وهذا، وسيان قيامك وقعودك"[٢].

٣- باب (بين):

وقد استنبطنا تلك الدلالة من تمثيل ابن هشام لعطف ما لا يستغنى عنه، "ومن ذلك جلست بين زيد وعمرو"[٣]، وقد كان الأصمعي يرى أن الصواب في قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَومَلِ[٤]

بين الدخول وحومل[٥].

إن عدم الترتيب راجع إلى قصد المتكلم الذي لا يلتفت إلى من قام بالفعل أولًا، بقدر التركيز على الفعل/ الحدث نفسه، فقد تخاصما، وقد جلس بينهما، وقد رأيتهما.

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٩.

(٢) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ٧٩.

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص ١٩.

(٤) البيت من الطويل، وهو مطلع معلقة امرئ القيس، (محمد فوزي حمزة: دواوين الشعراء العشرة، القاهرة، مكتبة الآداب، ط٣، ٢٠١٦م، ص ٣٣).

(٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج٢، ص ١٩.

ثانيًا- الترتيب لدلالة الاقتران:

وأما إفادة الترتيب، فقد قيدها بعض مثبتي الترتيب "بأن يختلف الزمان، فالمتقدم في الزمان يتقدم في اللفظ، ولا يجوز أن يتقدم المتأخر"(١)، ومعنى الواو هنا الاقتران، اقتران المعطوف بالمعطوف عليه في الحكم أو الحدث، أو ترتب نتيجة الثاني على وقوع الأول، ويحمل عليه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فشهادة الله شهادة الذات للذات، ثم تلاها شهادة المشهد من الملائكة، ولما كان الخلق شهد بذلك أولو العلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا(٢)﴾[الزلزلة]، فكلها تحتاج إلى أزمان مختلفة.

ومما يؤيد دلالتها على ترتيب الاقتران مراعاة للزمان توارد الواو وثم على المحل في رواية الحديث، من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في رواية البخاري: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، ويَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، ويَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ"(٢)، فقد رواها مسلم بلفظ "ثُمَّ"(٣)، وقد أكد ابن حجر دلالة الترتيب فيها تبعًا لهذه الرواية، يقول: "ومقتضاه أن وزن البُرَّة دون وزن الشعيرة؛ لأنه قدم

---

(١) يراجع: الجنى الداني في حروف المعاني، ص ١٥٩.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح: شرح وتبويب محب الدين الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، المكتبة السلفية، ط١، ١٤٠٠هـ، ج١، ص ٣١، رقم ٤٤.

(٣) مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، اعتنى به أبو قتيبة الفاريابي، الرياض، دار طيبة، ١٤٢٦هـ، ص ١٠٨، رقم ٣٢٥.

الشعيرة وتلاها البرة ثم الذرة، وكذلك هو في بعض البلدان. فإن قيل: إن السياق بالواو وهي لا ترتب، فالجواب أن رواية مسلم من هذا الوجه بلفظ "ثم" وهي ترتب"[١]، فيخرج من يخرج جماعات بحسب نسبة الخير، وكل جماعة تليها جماعة تبعًا لدرجة خيريتها.

بل إن رواية البخاري وردت في بعض طرقها بلفظ (ثُمَّ)، في قوله صلى الله عليه وسلم: " يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثم يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيرِ ذرَّةً"[٢]، وبهذا المعنى رواية أخرى للبخاري بلفظ ثم: "إِذَا كَانَ يَومُ الْقِيَامَةِ شُفِّعْتُ فَقُلْتُ يَا رَبِّ أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ فَيَدْخُلُونَ، ثُمَّ أَقُولُ: أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيءٍ"[٣]. وكذا حديث: "كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيءٌ غَيْرُهُ. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيءٍ. وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ"[٤]، فقد ورد في رواية التوحيد على نحو ما ذكر ابن حجر "ثم خلق السموات والأرض"، ثم أكد ابن حجر دلالة الترتيب بحديث رواه مسلم دال على تأخر خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة عن تقدير مقادير الخلائق، "وهذا الحديث يؤيد رواية من

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، تحقيق عبدالقادر شيبة الحمد، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ج١، ص١٢٩.

(٢) الجامع الصحيح، ج٤، ص ٣٨٦، رقم ٧٤١٠.

(٣) الجامع الصحيح، ج٤، ص ٤٠٥، رقم ٧٥٠٩.

(٤) الجامع الصحيح، ج٢، ص ٤١٨، رقم ٣١٩١.

روى "ثم خلق السموات والأرض" باللفظ الدال على الترتيب"[1]. ونحسب أن الواو الواقعة بين العرش والذكر للترتيب أيضًا لأسبقية وجود العرش عن أي شيء آخر.

إن الرواية ضابط مهم من ضوابط الفهم عند شراح الحديث النبوي الشريف، كما أن توارد المحل ضابط مهم من ضوابط الفهم عند النحاة.

الترتيب لدلالة عقلية/ الترتيب من أجل المعنى:

والمقصود بالترتيب هنا، هو الترتيب المعنوي لا اللفظي، أو الترتيب المستنبط من الدلالة العميقة للنص لا من ظاهر اللفظ؛ وهذه الدلالة يجتمع فيها الترتيب وعدم الترتيب وهذا من أخص خصائص الواو؛ إذ يكون الترتيب على مستوى البنية العميقة، وعدم الترتيب على مستوى البنية السطحية/ الظاهرية، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بأرقى المستويات اللغوية وأنقاها وأعلاها: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف. ومن ثم فقد أصاب أحمد رجب حمدان لما رجح أن الواو: "للجمع مع الترتيب كل بحسب مقتضاه لأن الواو لا تأتي في القرآن للجمع العشوائي، بل للترتيب، ولكن كل في محله"[2]؛ إذ لا بد من البحث عن العلة من التقديم والتأخير على نحو ما أشار السهيلي، لا مراعاة ظاهر التركيب للتمسك والتشبث بما قد يبدو غير دقيق إذا لم تؤيدة الدلالة والسياق.

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري، ج ٦، ص ٣٣٤.

(2) أحمد رجب حمدان: أثر حروف العطف في سورة عبس- دراسة دلالية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، المجلد (١٠)، العدد (٤٢)، ٢٠١٩م، ص ٤٥٦.

وقد بين السهيلي أن سر تقديم ما قدم وتأخير ما أخر يرجع إلى أسباب خمسة: الزمان [كتقديم عاد على ثمود]، أو الطبع [كالأعداد نحو مثنى وثلاث ورباع]، أو الرتبة: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧]، أو السبب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، أو الفضل والكمال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾: [النساء: ٦٩]، وأخذ يدلل على على هذه الأسباب الخمسة بآيات من الذكر الحكيم، وقد يجتمع سببين في التقديم، نحو تقديم السماء على الأرض للرتبة والفضل[١]. وقد تتبع ابن القيم كلام السهيلي ووافقه على بعضه وأضاف على بعضه وخالفه في البعض، فمما وافقه فيه تقديم الزمان[٢]، وتقديم النبيين على الصديقيين للفضل[٣]، ومما خالفه فيه تقديم الجن على الإنس لفضلهم لكونهم من الملائكة؛ لأن التقديم هنا تقديم زمان لا فضل[٤]، وتقديم أجزاء الوضوء للشرف لأن التقديم هنا واجب لأنه تقديم لربط الأجزاء بعضها ببعض[٥]، ومما أضافه من معاني

---

(١) نتائج الفكر، ص ٢٠٩: ٢١٥. وقد نقل عنه ابن القيم وراجعه في مواضعه كما يبين المتن، واستفاد منه العلائي نقلًا ونقدًا وإضافة أمثلة، (الفصول المفيدة في الواو المزيدة، ص ١١١: ١١٨).

(٢) بدائع الفوائد، ص ١١٨.

(٣) بدائع الفوائد، ص ١٢٣.

(٤) بدائع الفوائد، ص ١١٧.

(٥) بدائع الفوائد، ص ١٢٢.

أخر قوله تعالى: (﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]- وتقديم السماء على الأرض[2]).

ويلفت الانتباه فيما سبق حرص العلماء الشديد في البحث عن الدلالات العميقة التي من أجلها قدم ما قدم وأخر ما أخر، لا مجرد الوقوف السطحي عند عبارة: الواو لا تفيد الترتيب على نحو ما حاول بعض المفسرين الإفلات من حكمة التقديم.

وقد أجلى مداد بعض المعاصرين دلالات الترتيب والتأخير في باب العطف بين المتشابهات، على نحو الدراسة القيمة التي أنجزها محمد داود الموسومة بـ"معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم- لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتسابهة"، وقد خصص جزءًا من المعجم لسر التقديم والتأخير في المتشابهات، التي منها التشابه في بنية تركيب أسلوب العطف[3].

وفي المبحث التالي استكمال لما بدأه السابقون، فهدفه البحث عن دلالات التقديم والتأخير في باب العطف على نماذج من القرآن الكريم، ليس مع المتشابهات، بل مع الجمل التي قد تبدو غير مرتبة، وفق ما ارتأى بعض النحاة؛ إذ غاية هذا المبحث تأكيد ترتب الواو من خلال الإسهام بنكتة التقديم لما قد يبدو أن حقه التأخير.

---

(1) بدائع الفوائد، ص ١١٩.

(2) بدائع الفوائد، ص ١٣٩.

(3) محمد داود: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٨م، ص ٦١٢: ٦٢٥.

المبحث الثاني- الدراسة الدلالية لواو العطف المرتبة لدلالة عقلية:

نحاول من خلال ما قلناه من الترتيب للدلالة العقلية تصفية الخلاف الدائر حول بعض الآيات التي ظاهرها غير مرتبة، والترتيب العقلي هنا يقصد به أحد أمرين: الترتيب الظاهري والترتيب العميق معًا، فالترتيب الظاهري واضح في الآيات المستدل بها عند النحاة على ترتب الواو وكان ترتبها لحكم وفوائد على نحو ما أشار السهيلي وابن القيم، والترتيب العميق هو الذي ظاهر تركيبه غير مرتب، لكنَّ البنية العميقة للنص تبين من أي جهة الواو مرتبة. وهذا ما تعنى به السطور التالية التي نحاول فيها أن نحلل دلاليًّا الشواهد التي وردت عند النحاة مضيفين إليها بعض النماذج الداعمة لما نذهب إليه من معنى الترتيب العقلي أو الترتيب من أجل المعنى.

وأوكد إن الواو العاطفة في القرآن الكريم مرتبة لا غير، لكن دلالة الترتيب تختلف، وسنقف الآن عند بعض الآيات التي تنتمي إلى دلالة الترتيب العقلي العميق، ويمكن إبراز بعض المعاني التي يأتي من أجلها الترتيب العقلي العميق، في المعاني التالية:

١. الترتيب مراعاة لمنزلة ما قدم وفضله.

٢. الترتيب لخدمة قضية إيمانية.

٣. الترتيب للنزول من الأعم إلى الأخص.

٤. الترتيب لبيان أصل المقدم في وقوع الحدث.

٥- الترتيب للاعتبار والعظة.

١- الترتيب مراعاة لمنزلة المتقدم وفضله ومكانته:

تظهر دلالة الترتيب العقلي أكثر ما تظهر مراعاة لمنزلة ما قُدِّم وفضله ومكانته الرفيعة، وقد حمل بعض المفسرين واللغويين تقديم السجود على الركوع في قوله تعالى لمريم: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، [آل عمران: ٤٣] على دلالة الفضل والمنزلة، فضل السجود على الركوع، بل فضله على كل أركان الصلاة(١)؛ لأن "غاية قرب العبد من ربه إذا سجد، فلما كان السجود مختصًّا بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا جرم قدمه على سائر الطاعات"(٢)، أو لأنه عبر بمعنيين عن الصلاة(٣): السجود وقدمه للفضل أيضًا ويقصد بها صلاتها في بيتها، والركوع، ولكنه جعل الركوع مع الراكعين إشارة إلى صلاة الجماعة مع المصلين في

---

(١) يراجع:

- أبو السعود: تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٩٧١م، ج١، ص ٤٨٠
- الرازي: تفسير الفخر الرازي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ج ٨، ص ٤٨.
- أبو حفص الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق وتعليق عادل أحمد وعلي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م، ج٥، ص ٢١٦.
- الشوكاني: فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، بيروت، دار المعرفة، ط٤، ٢٠٠٧م، ص ٢١٧.

(٢) تفسير الفخر الرزاي، ج ٨، ص ٤٨، وانظر: اللباب في تفسير الكتاب، ج٥، ص ٢١٦.

(٣) يراجع تفصيل ذلك: نتائج الفكر، ص ٢١٤- البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٤٥.

المحراب، "وهذه خصوصية لها من بين نساء إسرائيل إظهارًا لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء"[١]، ورغم ذلك فلما كان صلاتها في بيتها أفضل فقد قدمه، فكأن الفضل لسببين: فضل السجود في ذاته على سائر الطاعات، وفضل صلاة المرأة في بيتها، ولابن القيم رأي في هذه المسألة نذكره في موضعه.

وقد لاحظنا أن تقديم ما حقه التأخير يقدم على ما أخر حتى إن كان حق المقدم هو التأخير من حيث الزمن، أو إن كان حقه التأخير من حيث رتبة القول، ونبين ما أجمل.

أ- الزمن والتقديم:

من العوامل التي يعنى بها التقديم عامل الزمن على نحو ما أشار السهيلي، كتقديم عاد على ثمود لأنهم أسبق منهم زمنًا، وتقديم الظلمات على النور[٢]. وكذلك تقديم الأنبياء بعضهم على بعض في الأشيع والأغلب. ورغم ذلك فإن عامل الزمن ليس مطردًا؛ بل لا وجود له متى نازعه عامل أو معنى الفضل والمكانة والشرف، من ذلك الآيات التي ربطت رسول الله صلى الله عليه وسلم بغيره من أنبياء. فالمتأمل لمثل هذه الآيات يجد النبي صلى الله عليه وسلم هو المقدم رغم أنه آخر أنبياء الله من حيث الزمن، لكنه المصطفى من أولي العزم المصطفين الخمسة من الرسل، لكنه "سيد الناس يوم القيامة"[٣]، وصاحب آخر رسالة من السماء إلى هدي

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج ٣، ص٢٤٤.

(٢) نتائج الفكر، ص ٢١٠.

(٣) صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٥٠، رقم ٤٧١٢.

الأرض كل الأرض، لكن اسمه مقرون باسم ربه "إذا قال في الخمس المؤذن أشهد"، بل مذكور عند العرش قبل الخلق، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾، [آل عمران: ١٧٩]، فحُق له أن يتقدم لفضله ومنزلته ومكانته وشرفه على سائر الأنبياء والرسل والخلق جميعًا.

لذا لا يجوز في مثل هذه الآيات أن نحكم عليها بأنها مجرد معطوفة بالواو، والعطف فيها لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيب، بل الترتيب كائن من حيث المعنى الذي يريد أن ينبه إليه المتكلم، وهو في القرآن الكريم الله جل وعلا، فتقدم النبي صلى الله عليه وسلم على إخوته من الأنبياء لمنزلته عند ربه، ويؤكد ذلك أيضًا حديث الشفاعة، فلم يستطع أحد أن يشفع لأمة محمد من الأنبياء إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبشيرًا له من ربه وتكريمًا له[1].

وانظر إلى تلك المواضع التي ربطت الرسول صلى الله عليه وسلم بغيره من الأنبياء، وقُدِّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، [الشورى:٣].

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾، [الأحزاب: ٧]، ويلاحظ تقدم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم مراعاة الترتيب الزمني: سيدنا نوح- سيدنا إبراهيم- سيدنا موسى- سيدنا عيسى، وهذا [أي الترتيب الزمني] ظاهر في قوله تعالى مخاطبًا نبيه: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

(1) انظر الحديث بتمامه: صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٥٠، ص ٢٥١، رقم ٤٧١٢.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾، [آل عمران: ٨٤].

وما دام النبي مقدمًا على كل الأنبياء، فهو متأخر لفظًا ومعنًى عن الذات العلية، وهو متقدم ضمنًا على أتباعه لأنه أسوتهم وقائدهم، وهذا ظاهر بجلاء في تلك الآيات التي تربط بين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ إذ يتأخر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، وظاهر أيضًا في تلك الآيات التي تربط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه؛ إذ يتقدم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأن الترتيب في كليهما ليس لأن الواو ترتب، بل لأن الترتيب عقلي محض، واقرأ قوله سبحانه:

- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، [آل عمران: ٣٢].

- ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، [آل عمران: ١٣٢].

- ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾، [النساء].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، [النساء: ٥٩][1].

- ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، [البقرة: ٢٨٥].

([1]) انظر أيضًا: النساء: ٦١- ٦٤- ٦٩- ١٠٠- ١٣٦- ١٥٠. المائدة: ٥٥- ٥٦- ٨١- ٩٢- ١٠٤. وآيات الأعراف، والأنفال، والتوبة.

- ﴿لـكِنِ الرَّسـولُ وَالَّـذينَ آمَنـوا مَعَـهُ جاهَـدوا بِـأَموالِهِم وَأَنفُسِـهِم وَأُولـئِكَ لَهُـمُ الخَيراتُ وَأُولئِكَ هُمُ المُفلِحونَ﴾، [التوبة: ٨٨].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، [آل عمران: ٦٨]، فقد تقدم أتباع إبراهيم عليه السلام أمنًا للبس، ولضبط الفهم، لئلا يظن أن الضمير يعود على النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان هو المقدَّم على الأتباع، فالترتيب هنا مراعاة للزمن[١].

ب- التقديم ورتبة القول:

معروف ما للسياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي من دور في تحديد مراد المتكلم، وإذا كان السياق اللغوي هو مجموعة العناصر اللغوية داخل النص، فإن السياق الخارجي يركز على "العناصر غير اللغوية المتصلة بالحدث الكلامي"[٢]، التي منها جهات التكلم والخطاب والإخبار؛ وقد "عني المفسرون وشراح الحديث بتحديد المتكلم والمخاطب والمتحدث عنه في كل جملة من جمل النص"[٣].

وفي سياق العطف يترتب على تحديد المتكلم في النص قضية الترتيب بين جهتي التكلم متى عُطف بين متكلمين أولًا ثم جاء بالعطف نص كلامهما ثانيًا؛ إذ الأصل في هذه الحالة مناسبة ترتيب الكلام ترتيب

(١) البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٣٩.

(٢) حسام قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة- مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، القاهرة، دار النصر، ط٣، ٢٠١٦م، ص ٢٩٥.

(٣) تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، ص ٣٠٠.

المتكلم، وهو يشبه في جانب منه مسألة اللف والنشر أو المقابلة أو صحة المقابلات في البحث البلاغي[1]، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، [القصص: ٧٣]؛ أي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتبتغوا من فضله، فقابل الليل بالسكون والنهار بابتغاء الفضل.

وقد يختلف الترتيب بين جهتي التكلم وجهتي الخطاب، ومن ثم يتوقف المفسرون عند العلة التي من أجلها حدث التقديم والتأخير، من ذلك قوله تعالى حكاية عن الرسول والذين آمنوا معه: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، [البقرة: ٢١٤]، فقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن القول: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من باب "طلب استعجال النصر لا على شك ولا ارتياب"[2]، وجنح بعضهم إلى أن جملة ﴿متى نصر الله﴾ من كلام المؤمنين، والجواب ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾

---

(1) يراجع: السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان يوسف، بغداد، مطبعة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م، ص ٦٦٢- ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الطلائع، ط١، ٢٠٠٦م، ج٢، ص ١٥- ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حنفي محمد شرف، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠١٢م، ص ١٧٩.

(2) ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م، ج١، ص ٢٨٨.

من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم تثبيتًا لهم[١]، يقول الطبرسي: "وقيل: إنه ذكر كلام الرسول والمؤمنين جملة وتفصيلا، وقال المؤمنون: متى نصر الله؟ وقال الرسول: إلا إن نصر الله قريب كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، أي لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضله بالنهار"[٢].

وهنا نلاحظ أن رتبة السؤال تخلفت عن رتبة المسئول عنه ورتبة الجواب تخلفت عن رتبة السائل، إذ الأصل: (حتى يقول المؤمنون والرسول متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) للمطابقة بين جهتي التكلم والخطاب، وهو المعنى الذي وجهه من جنح إلى اختلاف جهتي التكلم لأنها على نية التقديم والتأخير؛ إذ معنى الكلام "حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، فيقول الرسول ألا إن نصر الله قريب"[٣].

ولم تكن تلك المخالفة من أجل التقديم والتأخير لذاته، بل من أجل منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم وفضله، فهو وإن كان متأخرًا زمانًا من حيث الكلام، فهو المتقدم مكانة وفضلًا ورفعة، ولذلك قدم الرسول صلى الله عليه

---

(١) انظر في هذا الرأي وما وجه إليه من اعتراض، (فتح القدير، ص ١٣٩- تفسير الفخر الرازي، ج ٦، ص ٢٢- ص ٢٣- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦م، ج ٣، ص ٤١٢). وقد أيد هذا المعنى بعض المعاصرين كالشعراوي، (تفسير الشعراوي، ص ٩٣٠).

(٢) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار العلوم، ط١، ٢٠٠٦م، ج٢، ص ٥٨.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١، ص ٢٨٨.

وسلم، يقول ابن عطية: "فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ثم قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في الزمان"[١].

ج- تقديم ما حقه التأخير لأصالته:

قد تبدو هذه النقطة غريبة، فالأصل مقدم على الفرع، لكن غرابتها تزول عندما يتعلق الأمر بقضية التذكير والتأنيث، وعندما يتعلق الأمر بتقديم المؤنث على المذكر، والمؤنث فرع المذكر، نحو تقديم الشمس على القمر في آي الذكر الحكيم، رغم أن الشمس مؤنثة والقمر مذكر في عرف العرب، فكان يفترض أن يتقدم المذكر الأصل (القمر) ويتأخر المؤنث الفرع (الشمس)، وهذا بخلاف الوارد في القرآن الكريم باستثناء آية، وما ذاك إلا لأصالة الشمس من حيث مصدر الضوء وإن كانت فرعًا من حيث التأنيث، لتبعية القمر للشمس من حيث استمداد النور من الشمس وإن كان أصلًا من حيث التذكير، لكن مبدأ أصالة المذكر وفرعية المؤنث لا قيمة له أمام مبدأ الفضل والمكانة والمنزلة، مصداقًا لقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا﴾ [يونس:٥]، "والضياء أقوى من النور"[٢]، ومن ثم فمتى اجتمع الشمس والقمر قدمت الشمس وأخر القمر، قال تعالى:

- ﴿فالِقُ الإِصباحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ حُسبانًا ذلِكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ﴾[٣] [الأنعام: ٩٦].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١، ص ٢٨٨.

(٢) الزمخشري: الكشاف، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي معوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م، ج ٦، ص ٢١٧.

(٣) ومثلها: الرحمن: ٥.

- ﴿يَطلُبُهُ حَثيثًا وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمرِهِ أَلا لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العالَمينَ﴾ [الأعراف: ٥٤][1].

- ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً وَالقَمَرَ نورًا﴾ [يونس: ٥]

- ﴿وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ رَأَيتُهُم لي ساجِدينَ﴾ [يوسف: ٤].

- ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣][2]

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّـهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨]

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

- ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢)﴾ [الشمس].

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، وهي الآية الوحيدة التي تقدم فيها القمر على الشمس، فلعله إشارة إلى فضل الشمس أيضًا، إذ نور القمر لأهل الأرض، يزيله سراج الشمس؛ لأن نوره غير ذاتي، ولهذا شبهت الشمس في هذه الآية بالسراج لا الضوء إشارة إلى دلالة الإزالة هذه التي تحدثها الشمس لنور القمر متى طلعت[3]، وأظن

---

(1) ومثلها: الرعد:٢- إبراهيم: ٣٣- النحل: ١٢- العنكبوت: ٦١- لقمان: ٢٩- فاطر: ١٣- يس: ٣٨، ٣٩- الزمر: ٥.

(2) ومثلها: العنكبوت: ٦١

(3) حاولت استنباط هذا المعنى من كلام المفسرين عن دلالة السراج وإزالة الشمس لظل الأرض، انظر: تفسير الفخر الرازي، ج٣٠، ص ١٤٠- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار ==

أن هذا مناسب لسياق الآيات التي يدلل فيها نوح عليه السلام على آيات الله في الكون[1].

٢- الترتيب لخدمة قضية إيمانية:

ومن أسباب الترتيب العقلي بواو العطف الإشارة إلى قضية إيمانية، تكون مستنبطة من جهة التركيب الذي ظاهره قد يبدو مغايرًا من حيث ترتيب المعطوفات. وقضايا الإيمان التي تحدث عنها القرآن كثيرة، وعلى رأسها قضية الإيمان بالله، ووسطية هذه الأمة، وهاتان القضيتان هما محور هذه الفقرة، وعليه فتهتم هذه الفقرة بدلالات فرعية للترتيب عن دلالة القضية الإيمانية: الأولى- الترتيب من أجل التخلية والتحلية. الثانية- تنفيذ مشيئة الله، الثالثة- الترتيب للتوسط.

أ- الترتيب من أجل التخلية والتحلية:

إن قضية الإيمان بالله هي قمة كل منهج سماوي مذ آدم عليه السلام، وما يتبع هذا الإيمان من الإيمان بكل الرسل والملائكة والكتب السماوية، ومن ثم لا بد أن يخلي الإنسان من قلبه كل معبود بغير حق، ويزين ويحلي قلبه بالإيمان بالواحد الأحد، مذ أن ينطق بالتوحيد (لا إله إلا الله) التي هي قمة التخلية لغير الله والتحلية بالله عز وجل، إذ اشتمل التوحيد على نفي (لا

==

التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، إعداد وتقديم محمد المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ج٥، ص ٢٤٩- تفسير أبي السعود، ج٥، ص ٣٩٨.

(١) وذكر الزركشي أن علة تقديم القمر لانتفاع أهل السماوات به أكثر، (البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٥٩).

إله) وإثبات (إلا الله)، "والنفي تخلية وإثبات تحلية، خلى سبحانه نفسه من وجود الشريك ثم أثبت لنا وحدانيته"(١).

وفي سياق العطف نجد أن المعطوفات ترتب وفقًا لهذا المبدأ أو تلك الدلالة، أقصد التخلية والتحلية، والتخلية أولًا، والتحلية ثانيًا، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فنلاحظ في الآية تقديم الكفر بالطاغوت وتأخير الإيمان بالله، رغم أن الترتيب كان ينبغي أن يكون بتقديم الإيمان وتأخير الكفر، ولكن التأخير هنا مقصود وفقًا للمعنى المراد التنبيه عليه وهو التخلية من كل معبود بباطل، والتحلية بعبادة الحق، وهذه الدلالة التي من أجلها قدم ما قدم وأخر ما أخر هي من نتاج الفكر التفسيري المعني بدلالة الترتيب، نحو قول أبي السعود: "وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى لتوقفه عليه فإن التخلية متقدمة على التحلية"(٢)، وقد ذهب مذهبه من المعاصرين الشيخ الشعراوي؛ إذ يقول: "نلحظ أن الحق هنا قدَّم الكفران بالطاغوت ثم جاء بالإيمان بالله؛ لأن الأمر يتطلب التخلية أولًا والتحلية ثانيًا، لا بد أن يتخلى الإنسان من الطاغوت، فلا يدخل على أنه يؤمن بالله وفي قلبه الطاغوت، فنحن قبل أن نكوي الثوب نغسله وننظفه، التخلية قبل التحلية"(٣). وقد بين الرازي وتابعه أبو حفص الدمشقي إلى أن الآية تشير "إلى أنه لا بد للكافر من أن يتوب أولًا عن الكفر، ثم يؤمن بعد ذلك"(٤).

---

(١) تفسير الشعراوي، ص ١١٠١.

(٢) تفسير أبي السعود، ص ٣٨٧.

(٣) تفسير الشعراوي، ص ١١٢٩.

(٤) تفسير الفخر الرازي، ج٧، ص ١٧- اللباب في علوم الكتاب، ج٤، ص ٣٣١.

وقد جعل ابن عاشور العطف على الشرط للتعويض، التعويض بالإيمان عن الكفر؛ "لأن نبذ عبادة الأصنام لا مزية فيه إن لم يكن عوَّضها بعبادة الله تعالى"(١).

ب- تنفيذ مشيئة الله:

من كبرى قضايا الإيمان هي التركيز على مشيئة الله ﴿واللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، لا مشيئة الإنسان، فهو الحكيم، ولا يصدر منه إلا ما يتصف بالحكمة. وفي باب العطف نجد تقديم الأنثى على الذكر في مسألة الولادة، رغم أن الذكر هو الأصل، ومع ذلك يقول سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، فقد بين المتطلعون إلى دلالات التقديم والتأخير العلة في تقديم الإناث على الذكور رغم كونهن فرعًا عليهم، بأن مرد ذلك هو قدرة الله ومشيئته لا إرادة البشر، وذلك نظرًا لأن الذكور عند كثير من الناس مفضلون عن الإناث، فبين الله سبحانه وتعالى أن قدرته غالبة، فقدم سبحانه ما يشاؤه هو لا ما يشاؤه الإنسان، "فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم"(٢).

ج- الترتيب من أجل التوسط بين أمرين:

من قضايا الإيمان التي أكدها القرآن خيرية هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١٠٩]، وترتب على تلك الخيرية وسطية هذه

(١) التحرير والتنوير، ج ٣، ص ٢٩.

(٢) الكشاف، ج ٥، ص ٤٢٠. وانظر المعنى نفسه: تفسير أبي السعود، ج٥، ص ٧٣- تفسير البيضاوي، ج٥، ص ٨٤.

الأمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٢]. والوسط يكون بين شيئين كلاهما مسرف، ووسطية أمة محمد صلى الله عليه وسلم نابعة من كونها تمزج بين المادية والروحية[١]، فلا هي أسرفت في المادية كاليهودية، ولا هي أسرفت في الروحانية كالمسيحية، ووفقًا لهذا المعنى حاول المتطلعون إلى بيان دلالات الترتيب في سياق العطف توجيه دلالة الترتيب في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

لقد ذكرت الآية ثلاثة من الرسل الذين شملهم التفضيل، وجاء ترتيبهم على النحو التالي:

– موسى عليه السلام، وقد أشار إليه القرآن الكريم بصفته (كليم الله): ﴿مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾.

– محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أشار إليه القرآن مبهمًا، والإبهام اعتمادًا على فطنة المتلقي[٢]: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

---

(١) يقول ابن القيم: "وأهل السنة وسط في النحل، **كما أن أهل الإسلام وسط في الملل**"، (بدائع الفوائد، ص ٢٩٩).

(٢) يقول الزمخشري: "وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس"، (الكشاف، ج١، ص ٤٧٧)، وعند أبي السعود أن "الإبهام لتفخيم شأنه وللإشعار بأنه العلم الفرد الغني عن التعيين"، (تفسير أبي السعود، ج١، ص ٣٨١)، والمعنى نفسه عند البيضاوي (ج١، ص ١٥٣).

– عيسى عليه السلام، تصريحًا: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

يكاد يجمع المفسرون نقلًا عن مجاهد أن المقصود بالمبهم في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لما له من فضائل حاولوا حصرها(١).

(١) انظر: السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله التركي، المهندسين، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ٢٠٠٣م، ج٣، ص ١٦٤– مجمع البيان، ج٢، ص ١٢٦– الكشاف، ج١، ص ٤٧٧– التحرير والتنوير، ج٣، ص ٦: ٨– المحرر الوجيز، ج١، ص ٣٣٨– تفسير أبي السعود، ج١، ص ٣٨١– البغوي: تفسير البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله وآخرَين، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٩هـ، ص ٣٠٨– تفسير البيضاوي، ج١، ص ١٥٢– تفسير الفخر الرازي، ج٦، ص ٢١٧– تفسير القرطبي، ج٤، ص ٢٥٨– اللباب في علوم الكتاب، ج٤، ص ٣٠٥– تفسير الجلالين، ص ٤٢.
وروري عن ابن عباس: "أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى والمزية لمحمد صلى الله عليه وسلم"، (الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٣، ص ١٦٤)، وقيل إن المقصود إدريس أو إبراهيم (راجع: التفاسير السابقة) وأخذ بهذا الرأي صاحب التفسير الوجيز، (ص ٤٣)، وقد ردَّ الشوكاني مذهب التعيين لما أبهمه الله؛ إذ لا "يجوز لنا التعرض للبيان إلا ببرهان من الله سبحانه، أو من أنبيائه عليهم السلام... مع كون ذلك ذريعة إلى التفضيل بين الأنبياء وقد نهينا عن ذلك..."، (فتح القدير، ص ١٧٣)، وقد صفَّى القرطبي قضية الخلاف على تفضيل الأنبياء لما فرق بين تفضيل النبوة وتفضيل الأحوال، فالأول ممنوع، والثاني مقبول، يقول: "إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها. وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والمعجزات.."، (تفسير القرطبي، ج٤، ص ٢٥٥)، وهذا مؤيد ==

وترتب على كون المقصود بالمبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم البحث عن علة وسطيته بين موسى وعيسى عليهم السلام، فالترتيب الزمني يقتضي: موسى وعيسى ومحمد، ومع ذلك توسط محمد صلى الله عليه وسلم بينهما، وقد استنبط الإمام محمد عبده أن وسطيته من حيث التركيب دالٌ على وسطية ما جاء به صلى الله عليه وسلم من دين وسط وعلى أنه أمته وسط، يقول: "ولعل ذكر آخرهم في الوسط للإشعار بكون شريعته وكذا أمته وسطًا"(١)، وقد أخذ المعنى نفسه المراغي في تفسيره(٢)، وأيدها الشعراوي لما فصل وسطية هذه الأمة بين الشريعتين الأخريين الموجودتين آنذاك، فقد أسرفت إحداها في المادية والأخرى في الروحية، يقول: ".. فكأنه من المفهوم أنه لا ينطبق قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بحق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وحده. وجاء بها سبحانه في الوسط بين موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت في الوسط؛ وإنما جاء آخر الأنبياء، ولكنك تجد أن منهجه صلى الله عليه وسلم هو الوسط. فاليهودية قد أسرفت في المادية بلا روحانية، والنصرانية قد أسرفت في الروحانية بلا مادية، والعالم يحتاج إلى وسطية

==

بالعلة التي استنبطها ابن عاشور أو محمد عبده ومن وافقه، فهي لم تتعلق بالنبوة بل بالأحوال والخصوص.

(١) انظر: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق وتقديم د. محمد عمارة، ج١، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، ٢٠١٠م، ص ٧١٣- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، دار المنار، ط٢، ١٩٤٧م، ج٣، ص ٥.

(٢) المراغي: تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط١، ١٩٤٦م، ج٣، ص ٥.

بين المادية والروحية، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم، فكأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قطب الميزان في قضية الوجود"[1]. إذن فالترتيب هنا مقصود، والواو مرتبة، ولا يلتفت إلى سطحية القول بأن الواو لا ترتب.

وقد ردَّ ابن عاشور الترتيب إلى شدة الشبه بين شريعتي موسى ومحمد من حيث كونهما أوسع الشرائع، يقول: "وقد عطف ما دل على نبيئنا على ما دل على موسى عليهما السلام لشدة الشبه بين شريعتيهما؛ لأن شريعة موسى أوسع الشرائع مما قبلها، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام"[2]، وهو اجتهاد محمود ففيه معنى الترتب للواو، وإن كان البحث يميل إلى ما ذهب إليه المعاصرون لقوة الحجة والدلالة.

٣- الترتيب للنزول من الأعم إلى الأخص أو الترقي من الأخص إلى الأعم لتأكيد الأحداث

وقد يكون الترتيب العقلي العميق راجعًا إلى عطف الترتيب بين الخاص والعام؛ إظهارًا للعام وما هو أخص منه بل وما هو أخص من الأخص، وحمل ابن القيم على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، [آل عمران: ٤٣]، وذلك في حكمة تقديم السجود على الركوع رغم أن الركوع أولًا عادة وطبعًا ورتبة، وقد أولها المفسرون واللغويون بواحدة من الأسباب التالية:

(١) تفسير الشعراوي، ص ١٠٨٦.

(٢) التحرير والتنوير، ج٣، ص ٨.

- الواو لا توجب الترتيب[١]، وقد علل أبو السعود لهذا الرأي بأن غاية أصحابه "التصحيح لا الترجيح"[٢]، يقصد تصحيح تقديم السجود لا ترجيح تأخيره.

- السجود أدخل في الشكر، والمقام هنا مقام شكر[٣].

- كون السجود أفضل من الركوع[٤].

- كون الترتيب في شريعتهم كذلك السجود قبل الركوع[٥]، وانتقد ابن القيم أصحاب هذا الرأي؛ إذ "هذا قائل لا علم له به"[٦].

- كون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب[٧].

- أن الركوع هو ركوع الركعة الثانية[٨].

---

(١) مجمع البيان، ج٢، ص ٢٣٥- تفسير أبي السعود، ج١، ص ٤٨٠- تفسير القرطبي، ج ٥، ص ١٢٩- اللباب في علوم الكتاب، ج٥، ص ٢١٦.

(٢) تفسير أبي السعود، ج١، ص ٤٨٠.

(٣) التحرير والتنوير، ج٣، ص ٢٤٤.

(٤) فتح القدير، ص ٢١٧- اللباب في علوم الكتاب، ج٥، ص ٢١٦- تفسير الفخر الرازي، ج٨، ص ٤٨، نتائج الفكر، ص ٢١٣.

(٥) تفسير أبي السعود، ج١، ص ٤٨- بدائع الفوائد، ص ١٤١- تفسير القرطبي، ج٥، ص ١٢٩- اللباب في علوم الكتاب، ج٥، ص ٢١٧- تفسير الرازي، ج٨، ص ٤٨- البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٤٥.

(٦) بدائع الفوائد، ص ١٤١.

(٧) فتح القدير، ص ٢١٧.

(٨) البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٤٥.

– السجود بمعنى الصلاة، والمقصود صلاتها في بيتها، والركوع بمعنى الصلاة في جماعة بدليل (مع الراكعين)، وقدم السجود لفضله في ذاته ولفضل صلاتها في بيتها عن صلاتها في جماعة[1]. وقد ردَّ ابن القيم هذا المعنى ووصف صاحبه بأنه "أبعدَ النجعة فيما تعسفه من فائدة التقديم، وأتى بما ينبو اللفظ عنه"[2].

إن أعدل الآراء كما يبدو هو رأي من ذهب إلى أن المقام مقام شكر، لأن السجود والركوع مقترنان بالقنوت المذكور في أول جملة العطف والتي أغفلها جل من تحدث عن علة التقديم، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فهناك قنوت وسجود وركوع، ولما نظر هؤلاء فقط إلى المعطوفين الأخيرين بمنأى عن صاحبهما/ المقدم الأول/ القنوت، فقدت الدلالة شيئًا من الدقة على نحو ما بين ابن القيم في بدائعة، فقد علل لتقديم السجود على الركوع في إطار تعليله لتقديم القنوت عليهما معًا، فكأن السؤال الآن لم قدم القنوت وثنى بالسجود وأخر الركوع؟

لقد حدد ابن القيم دلالة ذلك في إطار قضية عطف المطلق على المفصل أو العام على الخاص، فقد قدَّم "الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ماهو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولًا، وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه، وهو السجود الذي يشرع وحده؛ كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة؛ فهو

(1) تفصيل ذلك في: نتائج الفكر، ص ٢١٣، ص ٢١٤– البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٤٥.

(2) بدائع الفوائد، ص ١٤٠.

أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا، لهو أخص مما قبله"[1].

إذن فالترتيب ترتيب تنازلي إن صح التعبير، وهو مقابل ترتيب الترقي، الذي ترتب فيه المعطوفات من الأخص إلى الأعم على نحو ما بين ابن القيم، وذلك نحو قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، فقد الأخص وهو "الركوع، ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير المتضمن لذلك كله"[2]. ويبدو أن السؤال المنطقي عن غاية هذا اللون من الترتيب، على أي حالة كان: تنازل أو ترقي، والذي يظهر لي أن الترتيب بنوعية غرضه تأكيد الأحداث المذكورة لئلا يتواكل على الأعلى من جهة مريم أو الأدنى من جهة المؤمنين.

لقد كان الترتيب تنازليًّا مع مريم عليها السلام لئلا تظن أن فعلها للأمر الأعلى بسبب اصطفائها يغني عما دونه الذي تشارك فيه جميع مؤمني زمانها وهو الركوع، والبدأ بالسجود لمنزلة مريم المصطفاة فتبدأ بالأعلى أو الأفضل، ولا تنسى ما هو دونه لكي تشارك مؤمني زمانها العبادة التي شرعها الله لهم، ومن ثم التأكيد بجملة ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

وأتى ترتيب الترقي مع المؤمنين في سورة الحج لتأكيد أهمية أن يرتقي المؤمن بإيمانه شغفًا بأمر الآمر، فعليه أن يصلي الصلوات المفروضة ﴿ارْكَعُوا﴾، وعليه أن يشكر الله أن هداه للإيمان، والشكر محله السجود

([1]) بدائع الفوائد، ص ١٤١.

([2]) بدائع الفوائد، ص ١٤١.

﴿وَاسْجُدُوا﴾، بل عليه أن يجعل عبادة الله على أوسع نطاق متى استطاع إلى ذلك سبيلا، بل عليه أن يوسع دائرة إيمانه بفعل الخير الذي يشمل كل ما سبق، وكأن الترتيب هنا تأكيد لتأكيدات ثلاثة: الأول- تأكيد ترقية المؤمن إيمانه لينال منزلة أعلى، والثاني- تأكيد أن هذا الترقي الذي يقوم به المؤمن يتفاوت فيه المؤمنون، فمنهم من يصلي ويشكر بلسان الحال دون تخصيص صلاة للشكر، فمنهم من يصلي ويشكر بالسجود، ومن يزيد من الطاعات ما يزيد على الفروض المكتوبة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، ومنهم من يوجه حياته كلها لله عبادة وقولًا وعملًا ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾، والتأكيد الثالث- عدم استغناء الأرقى على ما هو دونه، بل وجوب ما دون الأرقى، واستحباب الأرقى، فلا ينبغي مثلًا على المؤمن أن يشكر الله وهو قاطع للصلاة، أو أن يفعل الخير وهو غير مؤد للصلاة، ومن ثم مجيئها أولًا في الترتيب لوجوبيتها وألا يجب عنها أي شيء مهما ارتقى من حيث العمل والجهد لا من حيث المكانة؛ إذ الحقيقة أن الصلاة جامعة لكل ما سبق فهي صلاة وفيها السجود وفيها العبادة والخشوع وفيها فعل الخير بذكر الله.

٤- الترتيب مراعاة لأصل المقدم في وقوع الحدث:

يظهر الترتيب العقلي العميق أيضًا مع الأحداث التي يشترك في فعلها جنسا البشر: الرجل والمرأة، فنجد القرآن تارة يقدم الرجل ويؤخر المرأة، وتارة يقدم المرأة ويؤخر الرجل، ولا علاقة للتقديم والتأخير هنا بأفضلية أو تغليبية، بل إنها علاقة غلبة/ كثرة أو سببية، بمعنى أن كلا الجنسين يقوم بالفعل نفسه، لكن كثرة (غلبة) وقوعه في أحدهما دون الآخر فيقدم الجنس الذي يقع منه الفعل كثيرًا؛ لأنه الأصل في الفعل، وهذه الغلبة (الكثرة) إما عن إلف العادة للفعل، أو عن سببية وقوع الفعل في أحدهما دون الآخر، فيقدم

الجنس الذي يقع بسببه الفعل كثيرًا؛ لأنه أيضًا الأصل في الفعل دأبًا أو سببًا.

فمن الأول، أقصد دلالة الغلبة للدأب والعادة قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، [المائدة: ٣٨]، فقد توقف المفسرون المعنيون بدلالات التقديم والتأخير عند علة تقديم الذكر على الأنثى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾، وأجمعوا على أن فعل السرقة في الرجال أغلب من النساء(١)، ومرد ذلك سببان: أن السرقة تتطلب جرأة والجرأة غالبة على الرجال(٢)، كما أن غرضها حب المال، وحب المال على الرجال أغلب(٣).

ومن الثاني، أقصد دلالة الغلبة (الكثرة) للسبب، قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، [النور: ٢]، وهي عكس الآية السابقة من حيث تقديم الجنس، فقد تقدمت الأنثى على الذكر في هذه الآية، وقد ربط بعض المفسرين بين الآيتين من حيث دلالة الترتيب(٤)، وقد عللوا تقديم الأنثى على الذكر بأن فعل الزنى في النساء أغلب، ومرد ذلك أمران:

---

(١) انظر: مجمع البيان، ج٣، ص ٢٧٣- المظهري: تفسير المظهري، أحمد عزُّ عناية، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٤م، ج٦، ص ٣١٦- البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٦٠.

(٢) تفسير المظهري، ج٣، ص ١٢٤.

(٣) تفسير القرطبي، ج٧، ص ٤٧٣.

(٤) مجمع البيان، ج٣، ص ٢٧٣- تفسير المظهري، ج٣، ص ١٢٤- تفسير القرطبي، ج٧، ص ٤٧٣- البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ٢٦٠.

الأول- الشهوة، والشهوة في النساء أكثر وأوفر وعليهن أغلب[1]، والثاني- أنها الأصل في الفعل، فهي السبب الرئيس في وقوع الزنى، بتعرضها للرجل، وعرض نفسها عليه، وتمكينها منه[2]، "وبمساعفتها الرجل يحصل الزنى ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكينًا، فتقديم المرأة في الذكر لأنه أشد في تحذيرها"[3].

وقد قدمت كتب التفسير أسبابًا أخرى لتقديم الأنثى على الذكر، نرى أنها راجعة إلى المعنى العام وهو غالبية وقوع الفعل وسببيته منهن[4].

٥- الترتيب للاعتبار والعظة:

من الشواهد التي تمسك بها مؤيدو نفي الترتيب للواو، قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، [القمر:١٦، ١٨، ٢١، ٣٠]، "والنذر قبل

---

(١) مجمع البيان، ج٧، ص ١٦٠- تفسير المظهري، ج ٣، ص ١٢٤-

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ١٤٦- تفسير أبي السعود، ج ٤، ص٩٠- تفسير البيضاوي، ج٤، ص ٩٨- فتح القدير، ص ٩٩٦- تفسير القرطبي، ج٧، ص ٤٧٣- ج ١٥، ص ١٠٤- تفسير المظهري، ج ٦، ص ٣١٦.

(٣) التحرير والتنوير، ج١٨، ص ١٤٦.

(٤) وهذه الأسباب هي: (راجع: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٤، ص ١٦١- فتح القدير، ص ٩٩٦- تفسير القرطبي، ج ١٥، ص ١٠٤):

- أن الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كان لهن رايات تنصب على أبوابهن ليعرفن. [وهذا دليل على أنهن سبب الفعل].

=

= - أن المرأة هي الأصل في الفعل. [وهذا يدل على أنها السبب أيضًا].

العذاب بدلالة قوله: ﴿وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسولًا﴾"[1]. والحق ليس في هذا الشاهد دليلٌ أيضًا على عدم ترتب الواو، بل إنها مرتبة لدلالة أراد المتكلم أن يعيها المخاطب.

لقد وردت (عذابي ونذري) ست مرات، أربعًا منها في سياق استفهام خرج عن بابه في سياق سردد قصص من كذبوا الرسل، لا سيما قوم نوح وعاد وثمود: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ***كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ*** (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) ***فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ*** (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ

([1]) معاني الحروف للرماني، ص ٣٧، وقد مال الشعراوي إلى هذا الرأي، رغم حرصه على استنباط دلالات التراكيب في القرآن الكريم؛ فالواو عنده "لا تقتضي ترتيب الأحداث"، (تفسير الشعراوي، ص ١٥١٥)، بل "تفيد الجمع للحدثين فقط"، (تفسير الشعراوي، ص ١٥١٤).

وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) **فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** (٣٠)﴾.

وقد ضرب الله هذه القصص لضرب المثل لحال كل من كذب رسولًا ولم يقبل المنهج الذي أرسل به الرسول، فيقول سبحانه (فكيف كان عذابي ونذري)، والاستفهام للتعظيم والتعجب لوصف هول ما أصاب مكذبو الرسل، والاستفهام وعيد للمخاطبين حال تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ووردت (عذابي ونذري) في المرتين الأخريين في خطاب مباشر لقوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ(٣٩)﴾، وهنا الخطاب لقوم لوط بأن يذوقوا العذاب في الدنيا والآخرة، ولهذا كرر (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)، والخطاب وإن كان لهم، فإنه موجه لكل مخالف لمنهج الرسول أيضًا، ومن ثم فجملة (عذابي ونذري) في سياقاتها الستة كأنها تهديد ووعيد لمن يكذب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وهنا تبرز القضية الأساسية وهي تقديم العذاب على النذر، رغم أن النذر يأتي أولًا.

إن سر التقديم والتأخير راجع إلى أحد أمرين: الأول- تقدير مضاف، والثاني مبني على الأول وهو المناسبة، أقصد مناسبة التركيب لحال المخاطب، وهذا هو التوجيه الأهم.

فمن حيث تقدير مضاف فإن المعنى: فكليف كان عذابي وعاقبة نذري، وذوقوا عذابي وعاقبة نذري، وقد ألمح إلى ذلك الحذف ابن عطية؛ إذ يقول: ﴿وَنُذُرِ﴾ جمع المصدر أي وعاقبة نذري التي كذبتم بها"[1]، ومن حيث

(1) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ٥، ص ٢١٩.

المناسبة فقد سيقت هذه القصص لـ"وعيد قريش وضرب مثل لهم"[١]، فناسب ذلك الاستفهام الوعيدي من جانب، وتقديم العذاب وتأخير النذر من جانب آخر.

إن التقديم جاء مناسبًا لما آل إليه هؤلاء الأقوام، فقد انتهوا وأبيدوا، فناسب ذلك تقديم العذاب، وفيه توبيخ لقريش لعدم طاعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فناسب ذلك تأخير النذر، فكأن المعنى: فكيف رأيتم عاقبة عذابي [لمن اتبع هواه وعصى أمر الله]؟ وكيف يكون إنذاري لكم الآن؟ هل ستقبلون المنهج أم ستخالفون؟ ومن ثم فإن تقديم العذاب وتأخير النذر ليتعظ المخالفون من أحوال غيرهم من المشابهين لأحوالهم ويقبلوا نذر الله الموجه من رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون تخويفًا لهم من العذاب، يقول الطبرسي: "﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ وهو تعظيم للعذاب النازل بهم [أي القوم المتحدث عنهم]، وتخويف لكفار مكة"[٢].

وهذا هو سر التقديم مع ﴿ذوقوا عذابي ونذر﴾ أيضًا، من باب اتعاظ القرشيين وكل المخالفين، لا سيما أن الخطاب صالح لأن يكون مع كل مكذب، والمعنى "كنتم تكذبون فذوقوا عذابي فإنهم [أي قوم لوط] لما كذبوا ذاقوه"[٣]. أما من باب الخطاب المباشر لمن وقع عليهم الفعل فالعذاب مناسب لحال المخاطبين، فقد وقع عليهم العذاب لأنهم لم يستجيبوا للنذر، وكأن المعنى في الموضع الأول: ذوقوا عذابي "العاجل منه [الواقع بكم الآن

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ٥، ص ٢١٣.
(٢) مجمع البيان، ج٩، ص ٢٤٣.
(٣) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٩، ص ٦٢.

في الدنيا، وذوقوا] ما لزم من إنذاري وهو العذاب الآجل في الآخرة"[1]، وكأن المعنى في الموضع الثاني: فذقوا عذابي الواقع بكم الآن يوم القيامة، لأنكم لم تنتبهوا إلى نذري، فالعذاب هو المحسوس الآن وهو القريب زمانًا فتقدم، والنذر كان فيما مضى فتأخر.

إذن فعلى كل ما تقدم فإن الواو مرتبة، ولا حجة لمن احتج بالآية على عدم الترتيب.

(1) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٩، ص ٦٢.

الخاتمة:

حاولت في السطور السابقة أن أظهر دلالة واو العطف على الترتيب وعدمه، من خلال التفرقة بين مستويين من الكلام: المستوي العادي وهو ما كان بخلاف النص المقدس كالقرآن والحديث، فدلالة الواو على الجمع المطلق موجودة في المستوى الأول، ودلالتها على الترتيب لا غير حظي بها المستوى الثاني لمنزلته ومكانته وعلوه على أي مستوى لغوي، فلا ترد فيه الألفاظ والتراكيب بطريقة غير منتظمة، بل عرفت كل كلمة مكانها من النص لتفيد معنى ودلالة أراد المتكلم سبحانه وتعالى أن يستنبطها المشتغلون بلغة القرآن الكريم من خلال موقعية الكلمات داخل الجمل والأساليب.

ولعل هذه الدراسة وما سبقها من دراسات، تكون باعثة على فتح المجال لمزيد من الاجتهادات والدراسات المنجزة حول لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، لتأكيد فرضية ترتيب الواو فيهما، واستجلاء دلالات هذا الترتيب من جانب، ومزيد من الاجتهادات والدراسات المنجزة حول النصوص الأدبية المختلفة لاستجلاء الواو المرتبة وغير المرتبة وآليات كل منهما من جانب آخر، لتظهر لنا في مستقبل الآيام صورة واضحة شبه متكاملة عن حركية واو العطف في العربية التراثية والمعاصرة، ولتظهر صورة شبه كاملة عن دلالات الموقعية للمعطوفين، ولتظهر الفروق الواضحة في الاستعمال اللغوي للواو من حيث النص الديني والنص الأدبي.

بل لعل هذه الدراسة تكون باعثة على مزيد من الاجتهادات المنجزة حول التحليل الدلالي لقضايا التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم ليس على مستوى أسلوب العطف فحسب بل على مستويات التراكيب العربية كافة،

كالتقديم في باب تعدد النعت مثلًا أو الخبر أو الحال أو غيرها من الأشكال المختلفة التي تدخل في إطار قضية التقديم والتأخير على المستوى الواسع لدلالة الرتبة.

المصادر والمراجع

أولًا- القرآن الكريم، جلَّ من أنزله.

ثانيًا- المصادر التراثية:

- ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ): تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حنفي محمد شرف، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠١٢م.

- البخاري (ت ٢٥٦هـ): الجامع الصحيح، تحقيق محب الدين الخطيب وآخرين، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٤٠٣هـ.

- البغوي (ت ٥١٦هـ): تفسير البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله وآخرَين، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٩هـ.

- البيضاوي (ت ٦٩١هـ): أنوار التنزيل واسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، إعداد وتقديم محمد المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١.

- الجلالين: تفسير الجلالين، دار ابن كثير.

- ابن جماعة (ت ٨١٩هـ): إعانة الإنسان على إحكام اللسان، تحقيق رياض منسي، الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ذخائر مجلة الوعي الإسلامي (١٢)، ٢٠١٧.

- ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح الإمام البخاري، تقديم وتعليق وتحقيق عبد القادر شيبة، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

- أبـو حفـص الدمشـقي (ت ٨٨٠هـ): اللبـاب فـي علـوم الكتـاب، تحقيـق وتعليـق عـادل أحمـد وعلـي محمـد، بيـروت، دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٩٩٨م.

- الـرازي (ت ٦٠٤هـ): تفسـير الفخـر الـرازي، بيـروت، دار الفكـر، ط١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

- ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الطلائع، ط١، ٢٠٠٦م.

- الرُّماني (ت ٣٨٤هـ): معاني الحروف، حققه وخرج حديثه وعلق عليه عرفان العشا، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٥م.

- الزجـاجي (ت ٣٤٠هـ): كتـاب حـروف المعـاني، حققـه وقـدم لـه علـي توفيق الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.

- الزركشي (ت ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث، ط٣، ١٩٨٤م.

- الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): الكشاف، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي معوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م.

- أبو السعود (ت ٩٨٢هـ): تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٩٧١م.

- السكاكي (ت ٦٢٦هـ) مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان يوسف، بغداد، مطبعة الرسالة، ط١، ١٩٨٢م.

- السهيلي (ت ٥٨١): نتائج الفكر في النحو، حققه وعلق عليه عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

- سيبويه (ت ١٨٠هـ): الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٥، ٢٠١٤م.

- السيوطي (ت ٩١١هـ): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله التركي، المهندسين، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ٢٠٠٣م.

- الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ): فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، بيروت، دار المعرفة، ط٤، ٢٠٠٧م.

- الطبرسي (ت ٥٤٨هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار العلوم، ط١، ٢٠٠٦م.

- الطبري (ت ٣١٠ هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله التركي، القاهرة، دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

- ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ): شرح جمل الزجاجي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه فواز الشعّار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.

- ابـن عطيـة (ت ٥٤٦هـ): المحـرر الـوجيز، تحقيـق عبـد السـلام عبـد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م.

- العلائـي (ت ٧٦١هـ): الفصـول المفيـدة فـي الـواو المزيـدة، تحقيـق حسـن الشاعر، عمان، دار البشير، ط١، ١٩٩٠م.

- الفراء (ت٢٠٧هـ): معاني القرآن، عالم الكتب، ط٣، ١٩٨٣م.

- القرطبـي (ت ٦٧١هـ): الجـامع لأحكـام القـرآن، تحقيـق عبـد الله التركـي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦م.

- ابـن قـيم الجوزيـة (ت ٧٥١هـ): بـدائع الفوائـد، تحقيـق علـي بـن محمـد العمران، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، دار عالم الفوائد.

- المالقي (ت ٧٠٢هـ): رصـف المبـاني فـي شرح حـروف المعـاني، تحقيـق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

- المبرد (ت٢٨٥): المقتضـب، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط٣، ١٩٩٤م.

- المرادي (ت ٧٤٩هـ): توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق عبد الرحمن علي سليمان، القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، ٢٠٠١م.

- المرادي (ت ٧٤٩هـ): الجنـى الـداني فـي حـروف المعـاني، تحقيـق فخـر الدين قباوة، ومحمد نديم، لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

- مسـلم بـن الحجـاج (ت ٢٦١هـ): صـحيح مسـلم، اعتنـى بـه أبـو قتيبـة الفاريابي، الرياض، دار طيبة، ١٤٢٦هـ.

- المظهري (ت ١١٢٥هـ): تفسير المظهري، أحمد عزٌّ عناية، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٤م.

- ابن منظور (ت ٧١١هـ): تهذيب الخواص من درة الغواص، تحقيق أحمد طه، القاهرة، دار النشر للجامعات، ط١، ٢٠٠١م.

- النحاس (ت ٣٣٨هـ): إعراب القرآن، اعتنى به الشيخ خالد العلي، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ٢٠٠٨م.

- الهَرَوي (ت ٤١٥هـ): كتاب الأُزهية في علم الحروف، تحقيق عبد المعين الملوحي، ١٩٩٣م.

- ابن هشام (ت ٧٦١هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الطلائع، ٢٠٠٥م.

- ابن هشام (ت ٧٦١هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق وشرح عبد اللطيف الخطيب، الكويت، ط١، ٢٠٠٠م.

ثالثًا- الدواوين الشعرية:

- محمد فوزي حمزة: دواوين الشعراء العشرة، القاهرة، مكتبة الآداب، ط٣، ٢٠١٦م.

رابعًا- المراجع العربية والمترجمة:

- حسام قاسم: تحويلات الطلب ومحددات الدلالة- مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، القاهرة، دار النصر بجامعة القاهرة، ط٣، ٢٠١٦م.

– الشعراوي: خواطر الإمام الشعراوي في الكتاب المجموع تحت عنوان تفسير الشعراوي الصادر عن مكتبة مصطفى عيسى، دت.

– ابن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التنوسية للنشر، ١٩٨٤م.

– عبد اللطيف الخطيب وآخران: التفصيل في إعراب آيات التنزيل، الكويت، مكتبة الخطيب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٥م.

– محمد داود: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، القاهرة، دار غريب، ٢٠٠٨م.

– محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، دار المنار، ط٢، ١٩٤٧م.

– محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث.

– محمد عبده: الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، القاهرة، دار الشروق، طبعة ثانية خاصة بمكتبة الأسرة، ٢٠١٠م.

– المراغي: تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط١، ١٩٤٦م.

– وهبة الزحيلي: التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم، دمشق، دار الفكر.

خامسًا– الدوريات:

– أحمد رجب حمدان: أثر حروف العطف في سورة عبس– دراسة دلالية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، المجلد (١٠)، العدد (٤٢)، ٢٠١٩م.

- حسام قاسم: العلاقات بين الجمل والفقرات دراسة في الترابط الدلالي للنص العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م(٦٦)، ع(١)، يناير ٢٠٠٦م.